# سيرة أنبا أنطونيوس

بقلم القديس أثناسيوس الرسولي:

## رباط بين الشرق والغرب(١)

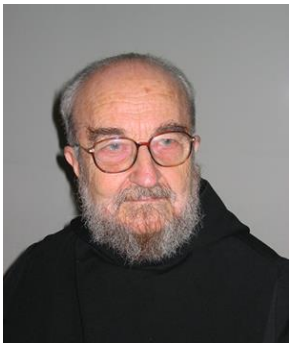

الأب عمانوئيل لان

❖✚❖

من بعد أسفار العهد الجديد تحتل سيرة القديس أنطونيوس بقلم القديس أثناسيوس مكانة فريدة في الكتابات المسيحية، وذلك ليس فقط بسبب سرعة انتشارها في كافة ربوع العالم المسيحي، ولكن بالأكثر لأن مجرَّد قراءة هذه السيرة قد جذب إلى المسيحية شخصيات عديدة وجعلها تتحوَّل بالتمام إلى الإيمان بالمسيح. بل إن خبر هؤلاء المتحوِّلين إلى المسيح بسبب هذه السيرة قد كان له أعظم الأثر في توبة القديس أغسطينوس، كما يشهد هو نفسه في اعترافاته، وسنعرض أقواله هذه بعد قليل. ولكن يمكن منذ الآن أن نُقرِّر بدون مبالغة أن كل الغنى الروحي واللاهوتي الذي استفادت به الكنيسة الغربية من القديس أغسطينوس يرجع الفضل فيه بالأساس إلى سيرة أنبا أنطونيوس هذه!

### أولًا – رهبان الغرب الذين طلبوا كتابة سيرة أنطونيوس:

لقد نُفِيَ ق. أثناسيوس مرة أولى في الغرب سنة ٣٣٦ بمدينة تريف أقصى شمال فرنسا ومرة ثانية من سنة ٣٣٩ إلى ٣٤٦ بروما. وفي كل مرة كانت شخصيته المُحبة جدًّا للمسيح تجتذب إليه قلوب الذين نُفِيَ عندهم، مع أنهم كانوا أصلًا مكلَّفين بمراقبته. ولا شك أنه حدَّثهم عن نشأة الرهبنة بمصر وعن الأنبا أنطونيوس، لأنه هو نفسه، أثناسيوس، كان يفتخر بأنه "من النساك"(٢) وبأنه صب ماءً على يدَي

(١) مُلخَّص محاضرة ألقاها الأب عمانوئيل لان في مطرانية الأقباط الأرثوذكس بالقدس بناءً على دعوة من المتنيِّح أنبا أبراهام مطران القدس، سنة ١٩٩٩.

(٢) الدفاع ضد الأريوسيين ٦: ٥.

أنطونيوس[٣]، تعبيرًا عن تلمذته له كما فعل أليشع مع إيليا (٢مل ٣: ١١).

وقبل أن يمضي عام على انتقال أنطونيوس طلب منه رهبان الغرب أن يُخبرهم عن تفاصيل أكثر عن سيرته. ويقول أثناسيوس في المقدِّمة إنه سيستعيد ذكرياته الخاصة "لأن مجرد ذكر أنطونيوس يُربحني أنا أيضًا منفعة كبيرة"، وسيستعين أيضًا بالذي رافق أنطونيوس سنينًا كثيرة (يقصد سيرابيون الأسقف). ولولا أن حامل رسالتهم متعجِّل بالإبحار قبل موسم الشتاء لكان استدعى رهبانًا آخرين من الذين رافقوا أنطونيوس ليستكمل معلوماته. وعمومًا يوصيهم بأن يطلبوا تفاصيل أوفر من كل مَنْ يأتيهم من مصر، "لأنه إذا روى الجميع ما عندهم من أنباء، فقد يتعذَّر أن يكون الوصف مطابقًا للحقيقة".

هذا ما يقوله أثناسيوس في المقدمة لرهبان الغرب، ويعود ويُذكِّرهم أيضًا في آخر السيرة: "من أين كان ممكنًا أن يسمع عن هذا الرجل الماكث مختفيًا في الجبل أهل إسبانيا وبلاد الغال وروما وأفريقيا (أي قرطاجنة بشمال أفريقيا)، لولا أن الله يجعل أخصاءه معروفين في كل مكان؟! الأمر الذي وعد به أنطونيوس أيضًا منذ بداية حياته" (٩٢).

**ثانيًا – القديس جيروم وسيرة أنطونيوس:**

وأمَّا القديس جيروم – وهو من أهم الآباء الذين كتبوا باللاتينية، وهو مترجم الفولجاتا – ففي كتابه "مشاهير الرجال" يقول في فصل ٨٨ بخصوص البابا أثناسيوس الرسولي إن أهم كتاب كتبه هو سيرة القديس أنطونيوس!!

**ثالثًا – تأثير سيرة أنطونيوس على القديس أغسطينوس:**

هذه القصة يسردها القديس أغسطينوس بالتفصيل في الكتاب الثامن من اعترافاته. فقد استقبل ذات يوم – بينما بدأ يتوب عن ضلاله – أحد أصدقائه المسيحيين اسمه بونتيسيان Ponticien، وكان يعمل في البلاط الملكي، وقد رأى هذا الصديق كتاب رسائل بولس الرسول موضوعًا على المائدة أمام أغسطينوس، فهنَّأه

(٣) سيرة أنطونيوس، المقدِّمة.

أنه بدأ يقرأ مثل هذا الكتاب:

[وبدأ يسرد لنا أخبار الراهب المصري أنطونيوس، الذي كان ذائع الصيت بين خدامك (المسيحيين) بينما كان لا يزال مجهولًا لدينا. فلمَّا اكتشف جهلنا بدأ يستطيل في الحديث ويكشف لنا قليلًا قليلًا عظمة هذا الرجل، مستغربًا من جهلنا به. وكنَّا نحن مشدوهين مما نسمعه، وأنه في زمن قريب منَّا كانت لا تزال عجائبك تتم بالإيمان داخل الكنيسة الجامعة! ثم استطال الحديث عن كثرة الأديرة وعن الرائحة الزكية الصاعدة منها نحوك (يا الله)!]

[ثم بدأ بونتيسيان يقص علينا أنه كان ذات يوم في مدينة تريف (إحدى عواصم إمبراطورية الغرب) وخرج مع ثلاثة آخرين من خدام الملك يتنزَّهون في البساتين المجاورة لسور المدينة، لأن الإمبراطور كان مشغولًا في ذلك المساء بمشاهدة سباق الخيل. وذهب كل اثنين منهم في اتجاه مختلف. وإحدى المجموعتَين وَجَدَت في وسط الغابة كوخًا صغيرًا كان يعيش فيه بعض خدامك "المساكين بالروح الذين لهم ملكوت السموات" ووجدَتْ فيه مخطوطًا به سيرة أنطونيوس. فبدأ أحدهما يقرأ فيه، وبينما يتقدَّم في القراءة كان قلبه يلتهب كالنار، وبدأ ينمو في قلبه اشتياق ليعتنق هذه الحياة ويترك خدمة العالم الحاضر لكي لا يخدم سواك! لقد كان الاثنان من الموظفين المقرَّبين من الإمبراطور. وقد امتلأ فجأة بالحب المقدَّس وبالخجل من نفسه وغضب على حاله وقال لزميله: قُل لي ماذا نبغي من كل مجهوداتنا؟ ماذا نطلب؟ ولأي هدف نخدم البلاط؟ وهل أملنا يذهب إلى أبعد من أن نكون من المقربين للملك؟ وكم من المخاطر تحيط بهذا الوضع؟! ومتى نصل إليه؟... بينما إذا شئتُ أن أصير من أحباء الله يمكنني تحقيق ذلك للتو!].

[هكذا كان يتكلم وهو يتمخَّض بالحياة الجديدة. ثم استعاد القراءة (في سيرة أنطونيوس) بينما كان هناك تغيير شامل يتم في قلبه كنتَ أنت وحدك تدري به، فقد كان فكره ينفك من العالم كما سنرى للتو. وبينما كان يقرأ وموجات الحياة تنهمر في قلبه، كان يرتجف كله، ثم ميَّز بوضوح القرار الصالح وأمسك

به وصار لك، وأعلن لزميله: "قد انتهى الأمر: لقد رفضتُ كل طموحاتي وقررتُ أن أخدم الله. وإني سأبدأ في هذه الساعة ومن هذا المكان الذي نحن فيه. إن كنتَ لا تشاء أن تشاركني فعلى الأقل لا تقاوم قراري". فأجاب الآخر إنه سيشاركه لينال مثل هذا الأجر ومثل هذه الخدمة. لقد صار الاثنان لك وكانا يبنيان البرج ويضعان فيه النفقة (لو ١٤: ٢٨)، كانا يتركان كل ما لهما ويتبعانك! (مت ١٩: ٢٧)، وهكذا سكن الاثنان في الكوخ الصغير].

هذه هي القصة التي سردها بونتينيان على أغسطينوس وأصدقائه. فبينما كان أغسطينوس يسمعه في صمت كثير، كان يجري داخله صراع عميق. ثم تأتي قصة ما حدث في البستان ويعود بعدها إلى ذكر سيرة أنطونيوس: لقد سمع وهو جالس في البستان صوت طفل من البيت المجاور قائلًا "خُذ واقرأ! خُذ واقرأ" فحسبه أمرًا من الله أن يفتح عشوائيًا كتاب رسائل بولس الرسول الموضوع أمامه ويقرأ ما يجده أمامه. ويقص هو نفسه ما حدث:

[كنتُ للتو سمعتُ كيف أن أنطونيوس دخل على غفلة الكنيسة أثناء قراءة الإنجيل واعتبر ما سمعه وصيةً شخصيةً موجَّهة له: «اذْهَبْ وَبِعْ أَمْلاَكَكَ وَأَعْطِ الْفُقَرَاءَ، فَيَكُونَ لَكَ كَنْزٌ فِي السَّمَاءِ وَتَعَالَ اتْبَعْنِي» (مت ١٩: ٢١) وكيف صار هذا القول سببًا في تغيير حياته].

أمَّا أغسطينوس فقد وقع على آية من الرسالة إلى رومية (رو ١٣: ١٣) جعلته يرفض حياته السابقة ويتوب. وهكذا نرى سيرة أنطونيوس تتدخل مرات متكررة في "قصة البستان" التي كانت محور تغيير حياة أغسطينوس. وهو كأديب بارع يضعها في الكتاب الثامن من اعترافاته أي بكل تدقيق في منتصف طول الكتاب، متذكرًا أصول البلاغة بأن يوضع أهم وأخطر أمر في منتصف طول الكتاب.

**رابعًا – تأثير سيرة أنطونيوس على القديس يوحنا كاسيان:**

يُعتبر القديس يوحنا كاسيان باتفاق الجميع "أكثر مَنْ أثَّر على تربية وتكوين رهبان الغرب على مدى العصور". فقانون ق. بندكتوس يوصي بقراءة كتابات

كاسيان في كافة الأديرة يوميًّا قبل صلاة النوم (RB 42). وكاسيان هذا يَعتبر القديس أنطونيوس وتعاليمه الروحية يُشكّلان المرجعية الأولى التي لا تُناقش فيما يخص الحياة الرهبانية القويمة.

وقد أقام خمسًا من مناظراته مع خمسةٍ من تلاميذ أنطونيوس (لأنه جاء إلى مصر بعد انتقال القديس بعدة سنوات):

- **المناظرة الثانية** (مع أنبا موسى) **عن الإفراز**: وفيها يقص قصة اجتماع بعض شيوخ الرهبان مع أنبا أنطونيوس لمناقشة أي الفضائل هي الأعظم. واستغرق الحديث الليل كله حتى الصباح، وبالنهاية أعطى أنبا أنطونيوس رأيه بأن كل هذه الفضائل التي ذكروها نافعة ولكن بدون **الإفراز** قد تؤدِّي إلى انحراف الإنسان. والقصة واردة بأكملها في بستان الرهبان قول ٣٢. وسيرة أنطونيوس تشهد في موضعَين أن "الجميع كانوا يتعجبون من موهبة تمييز الأرواح المُعطاة من الرب لأنطونيوس" (٤٣، ٨٧). وقد صارت تبعًا لذلك موهبة الإفراز διάκρισις = discretio لها المكانة الأولى في التقليد الرهباني الغربي وفي قانون بندكتوس الذي يعتبرها «أم الفضائل» (RB 64).
- **المناظرة الثالثة** (مع أنبا بفنوتيوس)**:** وفيها يعتبر تلبية أنطونيوس للدعوة الرهبانية كتلبية إبراهيم لدعوة الله له، وكما صار إبراهيم أبًا لكافة المؤمنين، هكذا صار أنطونيوس أبًا ومثالًا لكافة الرهبان (مناظرة ٣: ٤). وهذا يُذكّرنا بما قرأناه عن تأثير دعوة أنطونيوس على أغسطينوس بل وعلى أعضاء البلاط الملكي الذين تأثروا بقراءة سيرة أنطونيوس حتى تركوا كل شيء وتشبَّهوا به، وكان لخبرهم أعظم التأثير على أغسطينوس.
- **مناظرة ٨** (مع أنبا سيرينوس): يذكر فيها مناقشة دارت بين أنطونيوس واثنَين من الفلاسفة انغلبوا لحسن منطقه.
- **مناظرة ٩ و١٠** (مع أنبا إسحق) **عن الصلاة:** يذكر فيهما آراء ق. أنطونيوس السامية جدًّا عن الصلاة، ومنها "أن الصلاة لا تكون كاملة طالما يشعر الراهب في نفسه أنه يُصلي" (٩: ٣١). وأيضًا كيف أن صلاة الرب نفسه

لأجلنا «لِيَكُونَ فِيهِمُ الْحُبُّ الَّذِي أَحْبَبْتَنِي بِهِ» (يو١٧: ٢٦) تجعل مشاعر قلوبنا تلتهب بمحبة الله الذي أحبنا أولًا (١٠: ٧).

❖ **مناظرة ٢٤** (مع أنبا أبرآم): وفيها يلوم ق. أنطونيوس راهبًا احتفظ بعلاقته مع أهله وجعلهم يعولونه.

وهكذا نرى باقة من تعاليم ق. أنطونيوس تنتقل إلى رهبان الغرب عن طريق كاسيان، بعد أن أوقدت سيرة أنطونيوس فيهم الشغف إلى معرفة المزيد عنه.

**خامسًا – تأثير سيرة أنطونيوس على القديس بندكتوس وقانونه الرهباني:**

لمَّا كتب غريغوريوس الكبير بابا روما في القرن السادس سيرة ق. بندكتوس مؤسِّس الرهبنة الغربية، أخذ مثالًا له سيرة أنطونيوس التي كتبها البابا أثناسيوس. فمثلًا يقول أثناسيوس إن أنطونيوس لم يُؤْثر أن يتعلَّم "الحروف". والمقصود بذلك الآداب اليونانية، ولكنه كان يُجيد كتابة القبطية، حيث كان يوصي بضرورة تدوين أفكارنا لنخجل منها (سيرة أنطونيوس ٥٤). هكذا أيضًا يقص غريغوريوس الكبير عن بندكتوس أنه إذ أُرسل من أبوَيه إلى روما ليتعلَّم "الحروف" (أي الآداب)، لم يُؤْثر ذلك لِمَا رآه في كثير من الشبان الذي انقادوا بسبب ذلك إلى الرذيلة. فترك العلم وأبوَيه وكل مالهم واعتزل في الجبال. ولا شك أنه كان في ذهن غريغوريوس الكبير ما قاله القديس أثناسيوس عن أنطونيوس في مثل ذلك.

أما بندكتوس نفسه فقد استمد من كاسيان الكثير مما قاله أنطونيوس. فقد ذكرنا أنه دعا الإفراز في قانونه الرهباني "أم جميع الفضائل". كما استمد من سيرة أنطونيوس المبدأ التالي وأعطاه موقع الصدارة في قانونه (RB 4):

**«وكان (أنطونيوس) يحث الجميع على ألا يُفضِّلوا شيئًا مما في العالم على محبة المسيح»** (سيرة أنطونيوس ١٤)

هذه جملة مألوفة جدًّا لدى كل راهب بندِكتي، لأن لها موقع الصدارة أيضًا في قانون بندكتوس، وعن طريقها يستمد الراهب الغربي من أنطونيوس محبته الشديدة للمسيح.